موسيقى

أمسياته تنطلق الليلة في عاصمة الثقافة العربية

دمشق تستقبله بالأحضان بعد انتظار طال. إنّه لحدث تاريخي، موسيقيّاً بالدرجة الأولى. فرصة نادرة تتاح للرحباني الابن، بفضل تركيبة الفرقة الموسيقية، كي يجسّد رؤيته الصافية لمؤلّفاته. خمس أمسيات لن تنسى، ابتداءً من الليلة، لإعادة اكتشاف «يا ليلي ليلي ليلي» و«أبو علي»، و«صباح ومسا»...

زياد الرحباني عند لحظة الذروة

بشير صفير

بعد إحدى حفلاته في «لاس ساليناس» عام 1998، تسلّلت إحداهنّ إلى كواليس المسرح بهدف لقاءٍ عابر معه. ولا شك في أنّ تلك السيدةً حضّرت عشرات الجمل للتعبير عن مشاعر التقدير والإعجاب التي تكنّها لِزياد الرحباني، لتقولها دفعةً واحدةً... وترتاح. لكنّ جملة واحدة خرجت من فمها، أتت مسلّحة بصِدق المتألم لخسارة كبيرة، لا أحد يعي مداها غيره: «...إنتَ ما بْتعرف شو في بهالراس!». صرخت السيدَة وهي تدقّ بيدها المقبوضة على ذاك الرأس المكسو بشُعَيْرات قصيرة رطّبَها العرق.

هذه ليست حالة فردية، بل جَماعية يعبِّر عنها كثيرون. وليس في الأمر أي سوء، لكن هل السائل نَفسه يعرف حقاً «شو في بهالراس»؟ فإذا كان زياد الرحباني نفسه لا يعرف قيمة فنّه وفكره، فكيف لأحد أن يقدّر قيمة ما أعلن عنه الرأس، وبطبيعة الحال ما لم يُعلِن عنه بعد؟

عندما نتكلّم عن قيمة زياد، لا يمكن إلا اعتبار موسيقاه من إبداعاته الأقل فهماً (بالعمق) من قبل شريحة كبيرة من عشّاق أعماله. لكن ما الفرق في النتيجة بين تأثير هذه الأعمال على مَن يدّعي أنّه يعرف قيمتها، ومن يعترف بأنّه لا يملك وسائل تقديرها؟ لا شيء. هكذا يمكن أن نختصر ـ من دون تنظير ـ التعريف بزياد الموسيقي. وهكذا هم أجمل الكبارِ وأكثرهم احتراماً للإنسان، ومعرفةً بعمق النفس البشرية بعيداً من الطليعية النخبوية والشعبَوية التجارية.

إذاً كلّنا، سنكون الليلة في خندق واحد، ونزحف إلى دمشق لملاقاة زياد وفرقته الموسيقية حيث سيقيم سلسلة حفلات تحتضنها قلعة دمشق، وتستمرّ حتى 19 آب (أغسطس) الجاري ضمن احتفالية «دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008» (راجع مقالة الزميل خليل صويلح في مكان آخر من الصفحة) حدثٌ أقل ما يقال فيه إنّه تاريخي، ليس لأنّها الزيارة الرسمية الأولى لفنان إلى بلدٍ عشّاقه فيه بالآلاف ينتظّرون هذه المفاجأة منذ عقود. إنّما الحدث تاريخيٌ موسيقياً إذا جاز التعبير، إذ إنّ تركيبة الفرقة ستتيح لزياد فرصة التعبير عن رؤيته الصافية لكثير من أعماله. أما نحن، فسيمنحنا اللقاء لحظات يُعَوَّل عليها لتكوين الفكرة الأدقّ عن قدرة زياد الإبداعية في مجال الموسيقى، وتحديداً في ما يخصّ التوزيع وانتقاء المزيج الهارموني الأفضل (معقّداً كان أو بسيطاً) وقدرة إنتاج الصوت المراد (ذبذبات كان أو صمتاً)، وحسن اختيار الآلات المطلوبة لإصداره وجرأة إسكات أخرى ستعكره.

إذا استثنينا حفلات فيروز في بيت الدين، يمكن القول إنّ الفرقة الموسيقية التي سترافق زياد على مدى خمسة أيامٍ، تتمتّع بالتركيبة الأكمل مقارنة بجميع إطلالات زياد من حيث عدد الآلات الحاضرة وتنوّعها. في الصالة المخصصة للتمارين في معهد الموسيقى، وعلى مقربة من دار الأوبرا في العاصمة السورية، جلس أعضاء الأوركسترا (ذات التركيبة السيمفونية) التي لطالما حلمنا بأنِ توضع تحت تصرف زياد لكي تُؤدَّى أعماله كما يريد، وكما نريد أيضاً. عائلة الوتريات بجميع أفرادها ومجموعاتها، وآلات النفخ النحاسية والخشبية والآلات الإيقاعية الشرقية والغربية (وهنا حضرت آلة التيمباني العزيزة على قلب زياد، وحضر أرنو عازف الدرامز الهولندي)، إضافة إلى الكورس، و... بيانو «شتاينواي» طبعاً.

وسط بحر من الموسيقيين (لبنانيون وسوريون وفرنسيون وأرمن)، وقف المايسترو النحيل ذو الملامح الحادة. إنّه قائد الأوركسترا الأرمني كارن درغاريان الذي بات من أهل البيت منذ حفلات فيروز في بيت الدين عام 2000. بضع كلمات بلكنة إنكليزية ركيكة، وتنطلق المقطوعة، فيتراقص كارن بانفعاله المعهود، ويقلّد أصوات الآلات عند الفواصل والجملِ الموسيقٍية التي يرى فيها عبقرية فائضة، فينظر إلى زياد المتجوِّل المراقِب أو الرّاسي خلف البيانو، ويبعث إليه بابتسامة إعجاب وتقدير... تتوالى التمارين فنصل إلى «راجعة بإذن الله»، نبدي إعجابنا بالإضافات الجميلة على التوزيع الأصلي، معتقدين أنّها ثمرة الخبرة الطويلة، فيردّ زياد: «... هذا التوزيع هو الأصلي ويعود إلى عام 1979، ولكنّ ظروف التسجيل الرديئة لم تسمح بتنفيذها بشكل جيّد. لذا، لا يمكن التقاط التفاصيل الدقيقة البارزة هنا... طالعة ديسكو هونيك». التوزيع الموسيقي لكلّ المقطوعات

> **التوزيع الموسيقي للمقطوعات والأغاني يبدو جديداً والإضافات النوعية كثيرة**

إشارة

إطلالاته منذ التسعينيات

> **تنقل مع فرقته بين العديد من الحانات البيروتية**

لطالما اتُّهم الفنان زياد الرحبانِي بإطلالاته القليلة، وهو مُطالَب دائماً من محبّيه بجديد يروي (عبثاً) غليلهم. لكنْ إذا قمنا بجردة لنشاطات السنوات الأخيرة، نرىٍ أنّ هذا الاتهام باطل، وما المطالبة الدائمة إلاّ من باب العشق الذي يخربط العلاقة الطبيعية بين الشوق والوقت. وإذا كان صحيحاً أنّ زياد مجحف نسبياً في إنتاجه الفني، فالسبب الأساسي في ذلك يبرّر غاية فنية ترتقي إلى مستويات إنسانية بالمعنى الماركسي: تقديم النوعية الأفضل، بمهنيّة مسؤولة (قد لا يقدرها «المطالبون» أنفسهم).

بما أنّ جديد زياد اليوم هو إطلالة موسيقيّة حيّة، نحصر رصدنا إذاً بأبرز الحفلات وذلك خلال فترة محدودة (منذ عام 2000)، إذ يستحيل الإحاطة بتقديمات هذا الرجل الاستثنائي بنشاطه وانتاجيته العالية في أكثر من مجال.

بعد حفلات آخر التسعينيات، أطل زياد الرحباني عام 2000 مع السيدة فيروز في مهرجانات بيت الدين، فأشرف على البرنامج وتولى التوزيع الموسيقي وشارك عزفاً على البيانو. وتكرّر السيناريو نفسه حتى عام 2003 (باستثناء حفلات عام 2002 التي افتقرت إلى بيانو زياد). حفلات موسم عام 2003 في بيت الدين، سبقتها إطلالة ببرنامج مماثل (مع فروقات قليلة) لفيروز وزياد في دبي التي عاد إليها زياد عام 2005 لتقديم Da Capo مع فرقته، قبل أن يعلن السنة الماضية عن حفلتين في بيروت (الأونيسكو) حملتا العنوان ذاته.

في عام 2001، وبُعَيد صدور «مونودوز» (مع سلمى مصفي)، قدّم زياد مع غسان الرحباني (الذي كانت له مشاركة غنائية في هذا الألبوم) حفلتَين بعنوان «منيحة» في مدرسة «مون لا سال» (عين سعادة)، انقسم فيهما البرنامج بين أغنيات لغسان وأعمال لزياد، معظمها من «مونودوز».

وفي عام 2004، قام زياد بجولة بين الجبل والشمال، فقدّم برنامجاً كلاسيكياً في ثلاث حفلات في بعقلين، تلتها ثلاثُ أخرى في «لاس ساليناس» (أنفه). وفي السنة نفسها، شارك زياد إلى جانب خالد الهبر في الاحتفال بالعيد الثمانين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني (حفلتان في قصر الأونيسكو، تلتهما حفلة في الإطار ذاته في معرض رشيد كرامي الدولي ـ طرابلس)... أما آخر لقاء لزياد مع الجمهور، فيعود إلى أيلول (سبتمبر) الماضي، عندما شارك إلى جانب فنانين عدة من سوريا ولبنان، في إحياء العيد الأول لـ«جريدته»، «الأخبار»، في الأونيسكو.

من جهة ثانية، تنقّل زياد وفرقته بين العديد من الحانات البيروتية، وقدم في إطار ثابتٍ أو عابر أمسيات طغت عليها موسيقى الجاز.

بشير...

تقرير

عاصمة الأمويين على موعد مع «غيفارا الموسيقى العربية»

خلال البروفة أمس (حازم الهندي)

الشوارع غطّتها ملصقات عن الموعد المنتظر. زياد يجسّد تمرّد الشباب السوري على واقع متعثّر... وحفلاته تتوّج أكبر مهرجان موسيقي عرفته دمشق

دمشق — خليل صويلح

عشرون ألف متفرّج فقط! هؤلاء هم مَن حالفهم الحظ في الحصول على بطاقات لحضور حفلات زياد الرحباني الخمس التي ستبدأ اليوم على خشبة مسرح قلعة دمشق، بعدما مُدّدت الحفلات يوماً إضافياً لا أكثر، نظراً إلى ارتباطات الموسيقيين الأجانب بمواعيد أخرى.

حمّى زياد بدأت باكراً: آلاف الشباب تدافعوا أمام شبّاك التذاكر في مقر احتفالية "دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008"، للحصول على بطاقة، فالحدث استثنائي بكلّ المقاييس.

أخيراً، الرحباني الابن في دمشق، وجهاً لوجه مع جمهور متعطّش إلى سماع موسيقاه، وأمل في سماع بعض أغانيه وألحانه التي حفظها منذ سنوات بوصفها "مانفيست" لجيل لم يجد أفضل من زياد في وصف أحواله ومكابداته في العيش والاحتجاج والتمرّد، علماً بأنّ المنظّمين لاحظوا أنّ الإقبال على شراء البطاقات كان كثيفاً في الساحل السوري.

مقالاته في "الأخبار" يتناقلونها في البريد الإلكتروني وعلى "الموبايل" أو يوزّعونها في أروقة الجامعات. في غرف الـ"تشات"، اختار أحدهم اسم "شي فاشل"، وفسّر اختيار هذا الاسم بأنّه "كل شي فاشل في هذا البلد". وأخرى سمّت نفسها في أحد منتديات الإنترنت "فيلم أميركي طويل"، على اعتبار أنّ كل ما يجري في المنطقة هو "فيلم أميركي طويل و.. وقح". وقالت إن زياد «يعبّر عن رفض الشباب السوري لتعبيرات المجتمع الاستهلاكي، ويجسّد تمرّده على واقع سياسي وثقافي متعثّر... ثم هل تريدون أن أضع صورة نانسي عجرم أو عمرو خالد على جدران غرفتي؟".

أينما تلتفت في شوارع دمشق، ستجد ملصقات كبيرة تعلن عن حفلات زياد الوشيكة، وهي تحمل عبارات مقتبسة من عناوين أغانيه "اشتقتلك"، و"لأول مرة منكون سوا"، و"كيفك إنت"، و"يا نور عينيّ" و"زياد في قلب دمشق" كناية عن الحب الجارف الذي يكنّه له السوريون.

> ستروي يومًا لأبنائها أنها حضرت حفلة زياد في دمشق

قلعة دمشق التي أنشئ عليها مسرح ضخم لاحتضان الحفلات الخمس، زارها زياد قبل أيام للاطمئنان إلى صلاحية المكان موسيقياً. هكذا، ستشهد القلعة في العاشرة من مساء اليوم حشداً جماهيرياً، قد يصل إلى خمسة آلاف متفرج، وهناك مَن سيحاول التسلّل بأي طريقة إلى المكان، بعدما فقد الأمل في الحصول على بطاقة، وخصوصاً أنّ الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، التي تقيم هذه الحفلات، حرصت على بيع البطاقات بأسعار معقولة (20 دولاراً للعموم، و10 دولارات للطلاب والصحافيين). وبعدما بيعت البطاقات كلها، تدرس إمكان زيادة عدد الحضور في الحفلة الواحدة ليصل إلى 4500 شخص، بعدما كان يتّسع لثلاثة آلاف جلوساً.

ويأمل الشبان الذين لم يتمكّنوا من حجز مقعد تمديد عدد الحفلات، كما حصل في حفلات فيروز التي افتتح بها نشاط العاصمة الثقافية قبل خمسة أشهر. لكنّ الفرق هنا ــ يقول أحدهم معلّقاً ـ أنّ زياد أصّر على أن تكون أسعار التذاكر شعبية، وأنّه "يساري قولاً وفعلاً"، وأنّه "غيفارا الموسيقى العربية". وتذهب إحداهن أبعد، حين تصف زيارته إلى دمشق بأنّها أهم من زيارة الرئيس ميشال سليمان "بمراحل" وبأنها ستروي يوماً لأبنائها أنها حضرت حفلته في دمشق. وفي المقاهي، اختلط الشجن على رحيل محمود درويش، مع بهجة قدوم زياد التي "ستخفف من ألم غياب الشاعر الكبير، ولو قليلاً"، يقول شاعر شاب مضيفاً "زياد خيمتنا الأخيرة". ولا نعرف حتّى الآن إذا كان زياد سيغنّي أم سيكتفي بالعزف على البيانو، لكن يتوقع أن يتخلل الحفلات بثّ مقاطع من "اسكتشات" من الحلقات التي سجّلها سابقاً للإذاعة أو فواصل مكتوبة للمسرح. كما قد يؤدي بعضاً من أعماله التي لم تقدّم سابقاً في حفلة حيّة.

هكذا، فإنّ حفلات زياد الرحباني في دمشق، ستتوّج فعاليات الصيف بأكبر تظاهرة موسيقية تشهدها عاصمة الأمويّين، فيما ستفتتح قوس الخريف المقبل على حفلات بتوقيع مرسيل خليفة، ينتظر أن تكون حدثاً مماثلاً.

22:00 مساء اليوم حتى 19 آب (أغسطس) الحالي ـ قلعة دمشق
للاستعلام: +9633115142 - +9633115172
www.damascus.org.sy

مع عاصي وفيروز في الزمن السعيد

والأغنيات (حوالى عشرين عملاً تعود إلى مراحل مختلفة من نتاج زياد) يبدو جديداً، وتبدو الإضافات الجميلة كثيرة، لكن في الواقع ـ وعلى رغم وجود بعض الإضافات ـ التوزيع هو قريب لما كُتِب في الأصل. إذاً أين الجديد؟ الجديد يكمن في الأداء، وفي اكتمال التركيبة الموسيقية المطلوبة لهذا الأداء. بمعنى آخر، أولاً، في معظم حفلاته، اضطر زياد إلى تأليف التوزيع تماشياً مع تركيبة الفرقة. وثانياً، النسيج الموسيقي لمعظم مقطوعات زياد (وهو كلاسيكي ولو أنّ المقطوعة هي على إيقاع فانك أو جاز...) يدخل تنفيذها في لعبة الأداء الأوركسترالي، تماماً كأي عمل سيمفوني التركيبة (سيمفونية، كونشرتو، افتتاحية...). وكما نستدلّ مثلاً إلى أفضل تسجيل للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن، سنسمع اليوم أفضل أداء لـ«يا ليلي ليلي ليلي» و«مقدمة لولا فسحة الأمل 2»، و«جسر القمر» و«... وقمح»، و«أبو علي»، و«صباح ومسا»...

ملك الفيوجن وصوت الشعب

بيار أبي صعب

«لن يغنّي زياد! هذا ما أكّده لنا بعض أعضاء فرقته. الحفلات التي يقيمها في قلعة دمشق ستقتصر على البلوز والجاز... إلا أن بعض المتفائلين يراهنون على «مزاجيّة» الفنان، وتفاعل الحشود التي تنتظره بفارغ الصبر». بغض النظر عن دقّة هذا الكلام الذي قرأناه على الإنترنت، فنحن أمام عيّنة من المراهنات الرائجة هذه الأيام. ليس حدثاً عادياً ذلك الذي تشهده الشام. العاصمة السوريّة على موعد مع فنّان خارج التصنيف، ومشاغب من سلالة منقرضة. وكل يريد زياده. إذ إن الرحباني الابن خريطة متكاملة من المدارس والألوان والأنماط والأشكال الاستعراضيّة والتعبيريّة. لعلّ بعضهم يطالب بـ«عيسى ومخايل» أيضاً، والبعض الآخر يتوقّع سماع تلك الأغنيات الساخرة التي طبعت زمنها، وباتت عنواناً لرفض السائد الثقافي والاجتماعي والسياسي. ما يصحّ على هذا الصعيد في بيروت، يصحّ في الشام وأكثر. أحلام الحريّة نفسها، وكذلك النقمة والرغبة والسخرية والصراخ المكبوت.

> عاصي سأله مرة، صغيراً، من أين سمع اللحن الذي يدمدمه؟ فأجاب: «في رأسي، إنه يتردد منذ حين»

زياد الرحباني الذي تتعاطى معه شريحة واسعة من الشباب العربي بصفته سفير الحريّة، وصوت النقد والتغيير، هو أكثر من موسيقي (وممثل وكاتب ومسرحي إلخ). إنّه حالة عامة. يروى أن والده عاصي سأله مرّة، صغيراً، من أين سمع اللحن الذي يدمدمه؟ «في رأسي، إنّه يتردد منذ حين». وريث المدرسة الرحبانيّة العريقة، أخذها إلى أماكن مغايرة، أذُنٌ عند سيّد درويش وأخرى عند أنطونيو كارلوس جوبيم. ننتظره من الشرق، فيأتي من البرازيل مع الـ«بوسا نوفا». لقد مزج التأثرات والأنغام في مختبره: ما نظنّه «جاز» و«بلوز» و«سوينغ»، هو أيضاً «فانك» و«صول» و«ريتم أند بلوز»... زياد هو ملك الـ«فيوجن» بامتياز. الفيوجن كفلسفة حياة. موهبته الموسيقيّة ومناهله المختلفة وإلمامه الدقيق بالتراث العالمي، تتقاطع مع نزقه وقلمه المرّ كـ«معلّق» وكاتب أغنيات وحوارات ومقالات، من الشارع يصطاد الكلمات، فيستخرج الشاعريّة من فجاجتها... وأخيراً يأتي حضوره الشخصي عنصراً أساسيّاً في المعادلة، عازفاً على البيانو أو «كوميديّاً» على الخشبة: كلمة أو حركة، وتنهار الجموع من الضحك.

في التسعينيات فكّر ذات مرّة جدياً في خوض الانتخابات النيابيّة، ثم عدل عن تلك المغامرة. ومع ذلك يمكننا القول إن الفنان الذي تستقبله دمشق الليلة بالأحضان، هو... «صوت الشعب».

ألبومات

بالأفراح (1977)

«بالأفراح» هو مساهمة زياد في الموسيقى الشرقية الكلاسيكية، أدّى عبره «واجبه» تجاه المحافظة على الأصالة قبل أن يتفرّغ لمشاريع تطوير موسيقانا بطريقة تؤمن لها الاستمرارية والتجدُّد بعيداً من الأطلال. هكذا، استعاد على قاعدة تخت شرقي مُطوَّر، روائع لسيد درويش وزكريا وحليم الرومي والأخوين رحباني...

وَحدُن (1979)

إنّه الألبوم الأول الذي افتتح اللقاءات بين زياد وفيروز. حوى «وَحدُن» 5 ألحان متماسكة كالصلب للشاب العشريني، تنوعت بين شرقية مصرية («بعتلك») وشرقية فيليمونية («حبيتك تانسيت النوم» و«أنا عندي حنين») بالإضافة إلى بصمات خاصة لامسَت ذروة النغم التعبيري الحزين («وَحدُن») والشعبي الاحتفالي («البوسطة»).

هدوء نسبي (1985)

ينتمي هذا العمل إلى أكثر المراحل الموسيقية غزارةً في مسيرة زياد الذي ابتعد عن المسرح ليتفرغ لتسجيل أعمال وضعته بين أهم الموسيقيّن في تاريخ الفن العربي الحديث. يُعد «هدوء نسبي» بمثابة سفير موسيقى زياد إلى العالم. أتت الحصة الأكبر فيه موسيقية بقوالب طالت معظم التيارات الغربية في القرن العشرين.

«أمرك سيدنا» و«أبطال وحرامية»

كتب زياد موسيقى وأغنيات مسرحٍياته من «سهرية» (1973) وصولاً إلى المسرحيتين الأخيرتين (كان لبشارة الخوري مشاركة محدودة في تأليف الموسيقى التصويرية فيهما) عام 1987، كتب الموسيقى التصويرية والأغنيات الخاصة لعملين مسرحيَّين للفنّان أنطوان كرباج: «أمرك سيدنا» و«أبطال وحرامية».

كيفك إنت (1991)

إنه الألبوم الثالث في رحلة الإبداع التي جمعت زياد بفيروز، بعد «وَحدُن» و«معرفتي فيك»، وفيه دفع زياد الواقعية في الكلمة إلى حدودٍ قرّبت فيروز إلى نبض الشارع. يُعدّ «كيفك إنت» اليوم من أهم ما غنّت فيروز لزياد بعدما انتقدته أصوات انضمّت لاحقاً إلى المدافعين عنه، قبل أن تعلوَ مجدداً عند صدور «مش كاين هيك تكون» (1998).

بما إنّو... (1995)

«بما إنو...» هو اللقاء الأخير بين زياد وجوزيف صقر، بعد أكثر من عقدين من التعاون في المسرح والأغنية. صدر الألبوم قبل رحيل جوزيف وبعد عشر سنوات من «هدوء نسبي»، شُغل خلالها زياد بتسجيل أغنيات لفيروز. حوى الألبوم أجمل أعمال الرحباني الغنائية، وشكّل صوت جوزيف الإضافة الوحيدة الممكنة إلى لحنها ونصها.